جمهورية العراق ديوان الوقف الشيعي

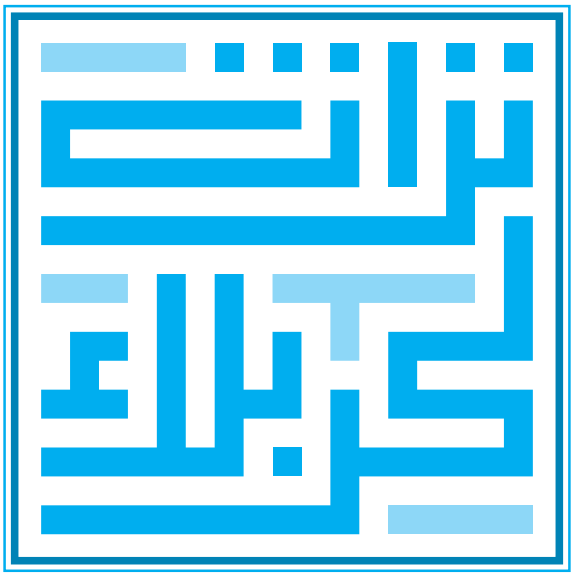

مجلة فصلية محكمة

تعنى بالتراث الكربلائي

مجازة من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معتمدة لأغراض الترقية العلمية

تصدر عن:

العتبة العباسية المقدسة

قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية

مركز تراث كربلاء

السنة الثانية/ المجلّد الثاني/ العدد الثالث

١٤٣٦-١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م

البناء الفني لمراثي الإمام الحسين (عليه السلام) في العصر الأموي

The Technical Formation of Imam Hussein 's (pbuh) Elegies in the Umayyad Era

م. د. مجبل عزيز جاسم

جامعة الكوفة

كلية التربية

قسم علوم القرآن

Lecturer.Dr Mijbil Azeez Jasim

University of Kufa

College of Education

Dept. of Quran Science

mijbela.jasim@uokufa.edu.iq

الملخص

يعد موضوع مراثي الإمام الحسين (عليه السلام)في العصر الأموي، من الموضوعات التي تحتاج إلى مزيد من التأمل والتحليل، ذلك أنه جُوبِه من السلطة الأموية بأشد مواقف التنكيل، وفنون الإخافة، لذا لا بد من الوقوف على حجمه، وأثره، ذلك أنه ترك أثره على حرية الشاعر وضيق عليه ومن ثم أدى إلى تحجيم شعره، وربما أدى إلى قتله، فضلاً عن إحجام تداوله خوفاً من السلطة الظالمة، مما دفع بعض الشعراء إلى ابعد من ذلك حينما نسبوا هذه المراثي إلى الجن تفاديا للعقاب...

وأمام حالة كهذه، وأمام إقبال شعراء على ممارسة تلك المراثي، لا بد من أن تبرز مجموعة خصائص تميز هذا الفن، وتصبغه بصبغتها، وهذه محاولة لمعرفة خصائص البناء الفني لهذا النوع، وأثر ذلك الحال على بنية القصيدة،والكيفية التي اثرت على اوصالها وملامحها، لا سيما أن شاعرها كتب تحت عباءة التستر خوفا من بطش السلطة.. وقد دار البحث حول بناء القصيدة، وتوقف عند مطلعها، وخاتمتها، وتناول بناء المقطوعة، وتطرق إلى وحدتها العضوية، لكونها في صميم موضوعة قول المرثية في ظل ظرفها الحاف.

Abstract

Imam Hussein's (pbuh) elegies in the Umayyad Period , is one of the subjects that needs more consideration and analysis as it has been confronted by the Umayyad power with different types of exemplary punishments and terrorization. Therefore, this subject requires more interest to show the authority influence over the poet's freedom by exerting pressure on him to reduce his poem, otherwise, he would be jailed or lose his life by assassination. In addition, this theme aims to appear the poet's refrainment from qolloquialing these elegies fearing from the Umayyad irritation . This has led some poets to attribute such elegies even to the jinn to avoid punishment.

With a state like this and with the insistence of some poets to introduce such elegies, there must have been some characteristics recognizes that type of art with special colures. This research is an attempt to know the features of the technical formation of that type of art, the impact it has had on the structure of the poem and to realize which one of its parts and features has also been or not been affected by it. Furthermore, there should be knowledge of what has been written under the pressures of the tyrant authority. Thus, this research has been planned to express the formation of the poem with some consideration of its onset and epilogue. It has also tackled the formula and the construction of the stanza and its organic unity as it has been thought that it creates the essence of the recitation of the elegy in that critical condition .

البحث:

امتد تأثير المنهج التقليدي الذي اتبع في العصر الجاهلي الى العصور التي تلته، فالشاعر يبدأ قصيدته بمقدمة تنحصر-في الغالب-بين الطلل والنسيب[١]، فأصبحت مقدمة القصيدة ظاهرة مميزة في الشعر العربي القديم[٢]، وقد عدها النقاد عنصراً مهماً في بناء القصيدة، فالشاعر يبدأ بذكر الديار والدمن والبكاء والشكوى ومخاطبة الربع ....الخ، كما أشار إلى ذلك ابن قتيبة[٣].

إن هذا النظام الذي ابتدعه القدماء واستحسنه النقاد وسار عليه المتأخرون لا ينسحب على جميع الأغراض، كالرثاء إذ ((أن المتعارف عند أهل اللغة أنه ليس للعرب مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد..))[٤]، والسبب في ذلك ((لأن الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة ؛ إنما تغزل دريد بعد مقتل أخيه بسنة، وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته))[٥].

أما مراثي الإمام الحسين (عليه السلام) في العصر الأموي فلا نكاد نجد فيها قصيدة اتخذت الانموذج التقليدي منهجاً في بنائها، بل وردت جلها على هيأة قصائد مباشرة أو مقطوعات، وبخاصة تلك التي نظمت في حقبة مبكرة، ولعل شدة وقع المصيبة على الشاعر أبعدته عن العناية الفنية بقصائده، فجاءت لتلبي حالة شعورية مفاجئة وطارئة ألمت بالشاعر.

أما في الحقبة المتأخرة فنرى الشاعر قد يعتني بقصائده بإتباع المنهج

التقليدي، ولعل تعدد الأغراض في هذه القصائد قد أسهم في ولادتها بهذه الصورة ومنها-على سبيل المثال-قصائد الكميت (الهاشميات) التي ورد فيها رثاء الإمام الحسين (عليه السلام)، وان لم يكن الغرض الرئيس، فالشاعر تحول بقصائده ((تحولاً سلبياً))[٦]، أراد به لفت انتباه المتلقي، وهو بهذا التقديم لم يخرج عن الطريقة التقليدية في بناء القصيدة إلا انه عزف عما هو محبب عند غيره من الشعراء في ابتداء قصائدهم بذكر الديار، ووصف حال الشاعر المتيم بفراق محبوبته وذكر الأيام السالفة، والانصراف إلى قيمة عليا ومحبة أرفع وأسمى لدى الشاعر ألا وهي محبة [٧] رهط النبي (صلى الله عليه وآله) إذ يقول :

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقاً إلى البيضِ أَطْرَبُ ... وَلا لعباً منّي وَذُو الشوْقِ يَلْعَبُ
وَلَـمْ يُلْهِنـي دَارٌ وَلا رَسْمُ مَنْـزِلٍ ... وَلَـمْ يَتَطَرَّبْنـي بَنَانٌ مُخَضَّبُ
وَلا أَنـا مِمَّـنْ يَزْجُـرُ الطَّيْرَ هَمَّـهُ ... أَصاحَ غُرَابٌ أَمْ تَعَرَّضَ ثَعْلَبُ
وَلا السَّانحاتُ البارحَـاتُ عشَّـيةً ... أَمَرَّ سَلِيـمُ القَرْنِ أَمْ مَرَّ أَعْضَبُ
وَلَكِنْ إلى أَهلِ الفَضَـائـلِ وَالنُّهَـى ... وَخَيْرِ بَنِي حَوَّاءَ وَالْخَـيْرُ يُطْلَبُ
إلى النَّفَـرِ البيضِ الذَّيـنَ بِحُبِّـهِـمْ ... إلـى اللهِ فِيمَـا نَالني أَتَقَـرَّبُ [٨]

ثم يصرح الشاعر بعد ذلك بمن يحب، فتتحقق المفاجأة لدى السامع وهذا ما يريده الشاعر من هذه المقدمة التي تثير في نفس المتلقي حالة من الترقب والتساؤل، والفضول[٩] فيقول:

بنـي هاشـمٍ رهـطِ النبـي فإنني ... بهم ولهم أرضى مرارا واغضـب [١٠]

وهكذا الأمر في معظم هاشمياته التي ورد فيها رثاء الإمام الحسين(عليه السلام).

ولما كانت هاشميات الكميت لم تقتصر على الرثاء فقط وإنما جاء الرثاء (قطعة) قصيرة ضمن هذه القصائد متعددة الإغـراض والموضوعات

سنعرض لدراستها (مستقلة) في المباحث اللاحقة .

أولا: بناء القصيدة:

اشرنا من قبل إلى أن قصائد الرثاء تختلف عن غيرها من القصائد؛ لأنها مباشرة ومستقلة عن غيرها من الموضوعات، فقد درج بعض الشعراء فيها على اختزال المقدمة فمن ((الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب، بل يهجم على ما يريده مكافحة، ويتناوله مصافحة))[١١]، وهذا ما نراه واضحاً في مراثي الإمام الحسين (عليه السلام) في العصر الأموي، فهي تعالج غرضاً واحداً، وبخاصة تلك القصائد التي نظمت في حقبة قريبة من واقعة الطف، فالقصائد مخصصة للرثاء من أولها إلى اخرها، ولعل السبب في ذلك يعود إلى تأثر الشاعر بشدة وقع الفاجعة التي سيطرت على مشاعره، مما جعله يتجاوز المقدمة متناولا موضوع القصيدة مباشرة.

ومما يميز هذه المراثي السمة الدينية، فالشاعر ينطلق في تناوله لموضوعه-رثاء الإمام الحسين (عليه السلام)-من منزلته وما يتمتع به من مكانة في نفوس المسلمين وبحكم قرابته من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعلى ذلك فان هذه المراثي تختلف عن غيرها، وهذا الاختلاف قد تمثل بانحسار((سمة التقليد الفني الذي كان يحتذي آلهيكل القديم بلوحاته المعروفة حيث انزل الشعر العربي إلى ميدان المنازلة٠٠٠، ولهذا فان طبيعة الأحداث والصراع ٠٠٠ اقتضى أن تمثل القصيدة المباشرة لموضوعاتها مساحة واسعة في الميدان الشعري أثناء هذه الحقبة المتقدمة من حياة الشعر العربي))[١٢].إن ظاهرة خلو قصائد الرثاء من المقدمات قد أسهم باختزال التخلص أو الخروج؛ لأنها دخلت في معالجة الغرض منذ المطلع [١٣]، ولعل مرد ذلك-طرح المقدمات-يعود

إلى العامل النفسي للشاعر أو للسامع أو المتلقي، فالشاعر وبسبب الانفعال النفسي المتصاعد لا يمتلك الوقت الكافي ليبدأ قصيدته بمقدمة، وإنما يلج إلى موضوعه مباشرة[١٤]، أما السامع فهو مهيأ سلفاً لما ترك المرثي في نفسه من الم وحزن سرعان ما تتأجج عواطفه بعد أن يطرق سمعه أول أبيات القصيدة، على أن يبدأها بمطلع مؤثر، أي أن المتلقي لا يحتاج إلى إعداد نفسي من الشاعر، وبذلك يتحقق عنصر الإصغاء الذي يريده الشاعر مما يوفر عليه العناء الذي لابد من بذله في غرض المديح-على سبيل المثال- الذي يتطلب التقديم له بمقدمة يستوثق الشاعر عن طريقها حالة الإصغاء والاستماع[١٥]، وربما يكون الوازع الديني احد الأسباب التي أدت إلى اختفاء المقدمات من هذه القصائد، إذ إن المقدمات بما تحتوي من تشبيب ونسيب وتغزل وغير ذلك لا تتلاءم مع أجواء هذه المراثي الملبدة بالحزن فضلا عن ابتعاد الشعراء أنفسهم عن الخوض في هذه المعاني لما عرف عنهم من تمسك بثوابت أخلاقية قد ألزموا أنفسهم بها لا تبيح لهم ذلك-كما اشرنا إلى ذلك من قبل-فجاءت قصائدهم على هذا النحو، فكان المطلع فيها يمثلُ مقدمةً يفصح الشاعر فيها عما يجيش في صدره مباشرة.

المطلع:

أولى الشاعر والناقد مطلع القصيدة عناية كبيرة[١٦]؛ لما له من أهمية تنعكس على القصيدة كلها، فإذا أحسن الشاعر اختيار المطلع الذي يناسب الغرض كانت قصيدته أوقع في النفس، وبذلك يجتذب السامع ويشده نحو المشاركة الشعورية ((فالشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وما

بعدهما الخاتمة فإنها من المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم للإصغاء))[١٧]، و خير الشعر ما أفصح الشاعر فيه عن مراده من أول البيت حتى قيل((لم يبتدئ احد من الشعراء بأحسن مما ابتدأ به أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملي جزعا فإن ما تحذرين قد وقعا

لأنه افتتح المرثية بلفظ نطق به على المذهب الذي ذهب إليه في القصيدة فأشعرك بمراده من أول البيت))[١٨] ٠مما يراد في مطلع القصيدة عذوبة الألفاظ وحسنها وجودة المعاني وان تكون العبارة واضحة سهلة الفهم وذات أسلوب، جزل[١٩]، وان يكون فخماً[٢٠] ٠ومن سمات المطلع الجيد هو ((الابتعاد عن التعقيد فانه أول العي ودليل الفهة))[٢١]، فالمطلع هو مفتاح القصيدة ((فالشعر قفل أوله مفتاحه، ينبغي للشاعر أن يجّود افتتاح شعره؛ فانه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة))[٢٢] .

ويرى باحث معاصر أن المطلع يشبه البيضة المخصبة فإذا ما اعتراها تشوه فان ذلك سينعكس على الكيان اللاحق [٢٣]، وتأتي أهمية المطلع مما يتركه في نفس المتلقي وما يترتب على ذلك من اهتمام بالنص إذا كان جيداً آسراً، أو انصراف عنه إذا كان ضعيفاً فاتراً [٢٤] .

إن لكل غرض من أغراض الشعر مطلعاً يلائمه ويستجاد فيه ولا يستجاد في غيره، وعلى ذلك ((ينبغي للشاعر أن يتحرز من أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير به، أو يستجفى من الكلام في المخاطبات كذكر البكاء ووصف إقفار الديار، وتشتت الالاف، ونعي الشباب، وذم الزمان ولاسيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني، وتستعمل هذه المعاني في المراثي ووصف الخطوب الحادثة))[٢٥].

وبناءً على ما تقدم، فقد يصلح في المديح ما لا يصلح في الرثاء، والعكس صحيح، والأمر كذلك مع سائر الأغراض أو اغلبها، فلكل غرض سبيل يسلكه الشاعر يختلف عن غيره، وقد علل ذلك ابن الأثير بقوله ((إن الغزل رقة محضة، والألفاظ التي تنظم في الحوادث .. من فحل الكلام ومتين القول، وهي ضد الغزل، وأيضاً فإن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث والابتداء بالخوض في ذكرها لا الابتداء بالغزل إذ المهم واجب التقديم))[٢٦].

ولكن قصيدة الرثاء لا تخضع للمطلع التقليدي ؛ لما لها من ميزة خاصة، وقد جاءت هذه الخصوصية من الانفعالات العاطفية الصادقة والانطباعات النفسية العميقة التي يعيشها الشاعر وان كانت هذه الانفعالات موجودة في غير الرثاء فهي ليست بالقوة التي هي في غرض الرثاء [٢٧] .

ومن استقراء مراثي الإمام الحسين (عليه السلام) في العصر الأموي تبيّن لنا إن مطالع القصائد جاءت تعبيراً صادقاً عما يختلج في نفس الشاعر من مشاعر وأحاسيس وانفعالات، فهي انعكاس للحالة النفسية التي يعيشها، وعلى ذلك فإن معظم هذه المطالع تدور حول تلك الانفعالات، كالحزن والندم والغضب بصورها المختلفة، فمن المطالع التي سيطر عليها السخط والغضب الشديد مطلع قصيدة عبيد الله بن الحر الجعفي الذي التقى الإمام الحسين(عليه السلام) قبل الواقعة بوقت قصير إلا انه لم يجبه عندما دعاه لنصرته[٢٨]، مما ترك في نفس الشاعر ندماً شديداً وحسرة ظهرت واضحة في أشعاره التي قالها عندما أتى كربلاء ونظر مصارع الإمام الحسين (عليه السلام)وأصحابه بقوله :

يقول أمير غادر حق غادر ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه[٢٩]

فقد ابتدأ الشاعر قصيدته بمطلع تهكمي ساخط عبّر فيه عما في نفسه من غيظ وسخط تجاه قتلة الإمام الحسين (عليه السلام) وأميرهم، ويعبر فيه عن ندمه لعدم مناصرة الإمام (عليه السلام) عندما دعاه لذلك إذ يقول بعد هذا المطلع:

ونفسي على خذلانه واعتزآله وبيعة هذا الناكث العهد لائمه
فيا ندمي ألا أكون نصرته ألا كل نفس لا تسدد نادمه (٣٠)

فقد حسم الشاعر في مطلع قصيدته أمرين أولاهما أهمية كبيرة أكد عليها في معظم قصائده في هذا المجال ؛ لما ترك مقتل الإمام (عليه السلام) في نفسه من آلام وأحزان، الأول، هو إثبات صفة الغدر (للأمير) الذي يمثل السلطة، فقد أكد هذه الصفة (الغدر) حينما كرر اللفظ (غادر) بإصرار، فالغدر صفة ذميمة لدى الفارس، والثاني : إثبات منزلة الشهادة للإمام الحسين (عليه السلام)، وهي أعلى المراتب التي تهفو إليها نفس المؤمن، لقد حاول الشاعر بتقرير هذين الأمرين التخفيف من الضغط النفسي الذي يعاني منه بسبب عدم إجابته للإمام الحسين (عليه السلام) . إن عدم نصرة الحسين (عليه السلام) كان خطأً فادحاً، والندم لا يكفي للتكفير عن هذا الذنب، فما كان منه إلا أن مارس دوره بوصفه فارسا ليجد في الفروسية المجال الأرحب لاستيعاب آلامه والتكفير عن ذنوبه (٣١)، كان للحالة النفسية التي يعاني منها الشاعر الدور الأهم في بناء قصيدته واختياره للمطلع الذي يترجم ترجمة صادقة لما يختلج في نفسه تجاه ما جرى في واقعة الطف، فالشاعر دعي للنصرة ولم يجب، ثم تقع الواقعة، ويقتل الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته وأصحابه، وينجو الشاعر، فلم الندم والحسرة وكان مصيره-لو انه أجاب الدعوة-الموت المحقق ؟ ربما لم يكن الشاعر يتوقع أن يقدم عبيد الله بن زياد على قتل الحسين (عليه السلام)،

ولكن إقدامه على قتل الإمام (عليه السلام) حرك مشاعر الألم والندم لدى الشاعر، فجاءت الكلمة النادمة الساخطة تعبيراً عن هذه المشاعر إلا أنها لم تخفف من الضغوط النفسية على الشاعر فكان ذلك حافزاً له للخروج على هذه (الإمارة) الغادرة أملاً في الخلاص من تأنيب الضمير .

ويأتي المطلع أحياناً مجسداً لحال الحزن والألم التي تعتصر قلب الشاعر، ومن ذلك مطلع قصيدة أبي دهبل الجمحي التي يقول فيها:

إليك أخا الصب الشجي صبابة تذيب الصخور الجامدات همومها[٣٢]

فهو يعبر عن حرارة شوقه وحزنه العميق، هذه الحرارة التي تذيب (الصخور الجامدات)، وفي ذلك مبالغة للتأكيد على شدة همومه وأحزانه التي تركتها الواقعة في نفسه، ولا يخفى ما في هذا المطلع من الدهشة والتعجب التي استولت على الشاعر؛ فهو لم يكن-كغيره من الشعراء-يتوقع أن يقدم هؤلاء القوم على هذا الفعل (العجيب)، وقد شفع هذا المطلع بالحديث عن الزمان وحوادثه معبراً عن التلازم بين الزمن والمصائب فيقول:

عجبت وأيام الزمان عجائب ويظهر بين المعجبات عظيمها[٣٣]

مررت على أبيات آل محمد (صلى الله عليه وآله) فلم أرها أمثالها يوم حلت [٣٤]

ومما يلاحظ في مطالع مراثي الشعراء الذين عاصروا الواقعة أو الذين لا تفصلهم عنها مدة طويلة بروز ظاهرة تلفت الانتباه، وهي ظاهرة المرور بالديار أو المصارع، ومن ذلك قوله :

نرى الشاعر يحرص على افتتاح مرثيته بمطلع حزين يستذكر فيه (أبيات آل محمد (صلى الله عليه وآله))، وهو يشعر بالحزن بعد أن خلت من أهلها وقد نالتهم سيوف

الأعداء ورماحهم دون رحمة أو رادع، ويبدو أن هذا المطلع قد نال قبول الشعراء واستحسانهم، فتنازعوا نسبته فقد تصدر مقطوعات نسبت إلى أكثر من شاعر[٣٥].

إن نجاح القصيدة يعتمد على مطلعها إذا ما نجح الشاعر في جعله ((مصوراً لجو القصيدة مترجماً عنها ومخلصاً لمغزاها)) [٣٦]، فمما يصور عمق الحزن والألم عند الشاعر هو مروره على قبر مرثيه، وما يثير هذا المشهد من أحزان ومشاعر، ومن ذلك قصيدة لعقبة بن عمرو السهمي مطلعها :

مـررت عـلى قـبر الحسين بكربلا ففاض عليه من دموعي غزيرها[٣٧]

لقد حرك مرور الشاعر على قبر الحسين (عليه السلام) عاطفته، فاستجابت لها عيونه بإرسال الدموع الغزيرة تعبيراً عن الحزن الشديد.

ومن القصائد التي تفتتح بمطالع تعبر عن حالة الحزن والتفجع التي تعيشها المرأة المفجوعة بفقد الأب أو الأخ أو الزوج، فهي تستعين بوسائل تناسب (أجواء التفجع) بالاستعانة بمطلع (حواري) كما في قصيدة للسيدة فاطمة بنت الحسين (عليها السلام) وهي تخاطب الغراب فتقول :

نعـق الغـــراب فقلـت من تـنعـاه ويحـك يـا غـــراب[٣٨]

وقصيدة للسيدة زينب بنت علي (عليها السلام) تتحدث فيها عن الزمن ونوائبه، فقد بدا لها وحشاً كاسراً فتقول :

لقد حط فينا مـــــن زماني نوائبه وفرقتنا أنيابـــــه ومخالبه[٣٩]

لقد بدأت هذه القصائد بمطالع تعج بالآلام والأحزان، وقد وظف الشعراء لإظهار هذه الأحاسيس والمشاعر المفردات التي تسهم في إتمام

ذلك، لذا فقد شكلت هذه المفردات ظاهرة مميزة في بناء هذه القصائد، فذكر(القبور) و(صوت الغراب) وذكر (الزمان ونوائبه) كل ذلك أسهم في إبراز هذه المشاعر لما لهذه المفردات من (معان) مؤثرة في مخيلة المتلقي كما سيتضح ذلك في المباحث اللاحقة.

ونجد في مراثي الحسين (عليه السلام) قصائد افتتحها الشاعر بمخاطبة (العاذلة)، ومن ذلك قصيدة لأبي الأسود الدؤلي يخاطب فيها زوجته مطلعها:

أقول لعاذلتي مرةً وكانت على ودنا قائمه (٤٠)

فهو يدعوها إلى الكف عن لومه لمحبته لآل البيت عليهم السلام وفيها يتوعدها بالفراق على الرغم من وجود آصرة تجمعهم (وكانت على ودنا قائمه)، ففي هذا المطلع يبدو الشاعر مصراً على الإخلاص لآل البيت عليهم السلام ، ويظهر هذا الإخلاص واضحاً في قوله:

إذا أنت لم تبصري ما أرى فبيني وأنت لنا صارمه(٤١)

وقد تنحو مخاطبة العاذلة منحى آخر غير الذي بدا لنا في خطاب أبي الأسود الشديد لزوجته وذلك في قول السيدة سكينة بنت الحسين (عليه السلام) :

لا تعذليه فهمّ قاطع طرقه فعينه بدموع ذُرّف غدقه(٤٢)

فهي تسوغ (للعاذلة) إن آلهم القاطع كان سبباً للدموع (الذرف)، ومن ذلك نستشف أن الدموع وآلهموم من المفردات التي تلائم مطالع قصائد الرثاء هذه؛ لأنها جاءت استجابة للعاطفة الصادقة المتدفقة التي تكنها البنت لأبيها، وهذا ما نلمسه في مراثي النساء على مر العصور والأزمنة(٤٣)، وقد يأتي المطلع مصوراً لعمق الظلم والجور الذي ارتكبه أعداء آل البيت عليهم السلام،

ومن ذلك قصيدة للفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب مطلعها:

كلما أحدثوا بـــــــــأرض نقيقاً ضمنونا الســـجون أو سيرونا(٤٤)

فهو يصف حال آل البيت عليهم السلام من بني هاشم وطريقة تعامل آل أمية معهم من سجن وتشريد وقتل واسر، فالشاعر يضع نفسه في موضع المدافع عن بني هاشم، إذ يتحدث بصيغة الجمع (ضمنونا) و(سيرونا)، ويستمر على هذا المنوال، فهو يعدد مثالب خصومه ومحاسن قومه، وقد أفصح منذ المطلع عن هذه (المساجلة) التي سيطرت على بناء القصيدة إلى آخرها• ومن الشعراء من يتناول مسألة الإمام الحسين (عليه السلام) من منطلق ديني، ومنهم أبو الأسود الدؤلي الذي يرى أن فقد الإمام (عليه السلام) إنما هو فقد للدين ومحاولة لطمس الشرائع التي جاء بها، فالشاعر عندما ينعى الحسين(عليه السلام) إنما ينعى الدين الذي أصابه التصدع، فيقول في مطلع قصيدته:

ياناعي الديـــــن الذي ينعى التقى قم فانعـــــه والبيت ذا الأستار(٤٥)

فلم يقل الشاعر(يا ناعي الحسين)؛ لأنه يرى أن الحسين (عليه السلام) هو (الدين)، وهو(التقى)، وهو(البيت ذو الأستار)، فالشاعر حاول تسليط الضوء على هذه المعاني الدينية ليعالج بها هذه الفاجعة، منطلقاً في ذلك من عقيدته.

ولا تبتعد السيدة زينب بنت علي (عليها السلام) عن هذا المعنى عندما افتتحت قصيدتها بمطلع (وعظي) موجه إلى المتلقي، فتقول:

تمـسـك بـالـكـتـاب ومــن تـلاه فأهل البيت هم أهل الكتاب(٤٦)

ولعل افتتاح هذه القصيدة بمطلع وعظي أكثر تأثيرا في المتلقي إذ انه صدر عن السيدة زينب بنت علي (عليها السلام) وما لها من منزلة في قلوب المسلمين فضلاً عما تتمتع به من علم وبلاغة، فهي تبدأ قصيدتها بالدعوة إلى التمسك بالكتاب و (من تلاه) ثم تفصح عمن تلاه (فأهل البيت عليهم السلام هم أهل الكتاب)، وكانت تهدف من وراء إثبات هذه الحقيقة عند مفتتح القصيدة إلى بيان منزلة آل البيت عليهم السلام، ثم تتدرج في سرد مناقب آل البيت عليهم السلام فتقول:

بهم نزل الكتاب وهم تلوه وهم أهل الهداية للصواب(٤٧)

بعد إثبات هذه الصفات التي يتصف بها أهل البيت عليهم السلام تدخل في رثاء الإمام الحسين (عليه السلام)، ووصف حال السبايا، وما تعرضوا له في هذه الواقعة المروعة، فكان لمفتتح الكلام أهمية كبيرة في إبراز هول المصيبة، ولتثير في نفس المتلقي التساؤل عن شرعية هذا العمل، فمن كانت هذه صفاته هل يجوز التعامل معه بهذه الصورة الوحشية ؟ لقد كان هذا المطلع وثيقة احتجاج ضد الذين أقدموا على قتل الحسين (عليه السلام) وسبي أهل بيته .

ومن المطالع الحزينة ما جاء في قصيدة للسيدة أم كلثوم بنت الحسين (عليها السلام) وهي تخاطب مدينة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فتقول :

مدينة جدنا لا تقبلينا فبالحسرات والأحزان جينا(٤٨)

فالمطلع يصور عمق الحزن والألم الذي تعاني منه، فمخاطبة الديار التي فقدت أهلها يثير الأحزان، وكأنها تحاول إبعاد مدينة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عما يعكر صفو هذه الديار بقولها (لا تقبلينا) .

ومما يلاحظ في مراثي الإمام الحسين (عليه السلام) في هذه الحقبة خلوها من

التصريع -في الغالب- والسبب في ذلك يعود إلى معاناة الشاعر وحالته النفسية المضطربة التي تبعده عن العناية الفنية بشعره (فيترك عاطفته تتفجر دون اهتمام فني ملحوظ)، ولعل ما نجده من مراث مصرعة المطالع راجع إلى ميل بعض الشعراء أو الشواعر إلى ترديد هذه المراثي في مجالس العزاء التي تقام في هذه المناسبة، إذ يلجأ الشاعر عندئذ إلى تصريع المطلع أو القصيدة ؛ لأن المطلع المصرع له وقع في النفس، ويجعل المتلقي يندمج مع القصيدة أو المقطوعة الملقاة، ويتفاعل معها حتى تجعله يتوقع ما يقوله الشاعر [٤٩]، ونرى ذلك في المقطعات التي نظمت لهذا الغرض كما سيتضح لنا ذلك عند دراسة المقطعات.

خاتمة القصيدة

احتلت الخاتمة في القصيدة العربية أهمية كبيرة، أولاها النقاد والشعراء عناية فائقة شأنها شأن المطلع، فقد ((قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر : لقد طار اسمك واشتهر، فقال : لأني أقللت الحز، وطبقت المفصل، وأصبت مقاتل الكلام، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم))[٥٠]، وعلى ذلك يكون لكل غرض معنى يناسبه ويحسن بالشاعر مراعاته، فـ ((الاختتام ينبغي أن يكون بمعان سارة فيما قصد به التهاني والمديح، وبمعان مواسية فيما قصد به التعازي والمراثي، وكذلك الاختتام في كل غرض بما يناسبه))[٥١].

وتـأتي أهمية الخاتمة ؛ لأنها آخر ما يعلق في ذهن المتلقي أو السامع ((وخاتمة الكلام أبقى في السمع، والصق بالنفس ؛ لقرب العهد بها ؛ فإن حسنت حسن، وان قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها))[٥٢] . ولكي تكون خاتمة القصيدة مقبولة ومؤثرة لابد للشاعر أن يعتمد على معايير أشار إليها النقاد، ومنها أن يكون الكلام ((كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة وان يتحرز فيها الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس عما قصدت إمالتها إليه))[٥٣]، وقد علل القرطاجني (ت ٦٨٤) وجوب العناية بخاتمة القصيدة ((لأنه منقطع الكلام وخاتمته، فالإساءة فيه معفوّة على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس ولاشيء أقبح من كدر بعد صفو وترميد بعد إنضاج))[٥٤].

بعد هذه التوطئة عن أهمية الخاتمة وما ينبغي للشاعر إتباعه لتكون الخاتمة

حسنة ومقبولة ومؤثرة في السامع، لابد لنا بعد ذلك من أن نعرض لخواتيم مراثي الإمام الحسين(عليه السلام) في العصر الأموي وأثرها في بناء القصيدة، فقد اختلفت هذه الخاتمة بين قصيدة وأخرى وان كانت تعالج مسألة واحدة وهي رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) إذ أننا نرى الشاعر تارة يختتم قصيدته بالتهديد والوعيد لقتلة الإمام (عليه السلام) وتارة أخرى يختتم بالحزن والتفجع والبكاء، ومما يلاحظ أن الشعراء الفرسان يغلب على قصائدهم التهديد والوعيد ومنهم عبيد الله بن الحر الجعفي، إذ يختتم قصيدته بخطاب موجه إلى عبيد الله بن زياد والي يزيد على الكوفة بقوله:

لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم ... فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهم مراراً أن أسير بجحفل ... إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
فكفوا وإلا ذدتكم في كتائب ... أشدّعليكممنزحوفالديالمه(٥٥)

لقد شفع الشاعر خاتمة قصيدته بالقسم ليؤكد بهذا القسم على إصراره وغضبه ونقمته على هذه الفئة، ولكن هذا الغضب لما يبلغ به مبلغ الثورة بعد، وعلى الرغم من زيغ هذه الفئة (الظالمة)، فهو يدعوهم إلى الكف عن هذه الأعمال مهدداً ومتوعداً .

نرى في هذه الخاتمة تصاعد انفعال الشاعر إلى أعلى درجاته، بعد أن تدرج في تناوله لهذه الحادثة بين السخط على الأمير (الغادر)، والندم والحسرة لتقاعسه عن نصرة الإمام الحسين (عليه السلام)، وثنائه على الذين آزروه، ثم يعود في هذه الخاتمة إلى الغضب والتهديد والتلويح بالثورة؛ ليترجم أقوآله إلى أفعال وان شابها بعض التردد (أهم مراراً) إلا إننا نجد إصراره واضحاً على

السير (بجحفل) وقيادة (الكتائب) التي جاءت استجابة لهذه الانفعالات المتصاعدة والغضب الشديد الذي يعتمل في صدر الشاعر الذي تهفو نفسه إلى ساحات المعارك ليخفف عما في نفسه من ندم وحسرة وغير ذلك.

وقد لا يقتصر طموح الفارس على التهديد، وإنما يتمنى لو انه شهد الواقعة ليدافع عن الحسين(عليه السلام)، كقول عبد الله بن عوف بن الأحمر في خاتمة قصيدته إذ يقول:

فيا ليتني إذ كان كنت شهدته فضاربت عنه الشانئين الاعاديا
ودافعت عنه ما استطعت مجاهدا وأعملت سيفي فيهم وسنانيا(٥٦)

لقد كان تركيز الشاعر في هذه الخاتمة على الحديث عن نفسه وما كان يتمناه دون الإشارة إلى ما يفترض الإشارة إليه في مثل هذه القصائد من ذكر صفات المرثي وخصآله، أو وصف شراسة الأعداء وابتعادهم عن القيم الإنسانية، وهذا ما يتلاءم مع تطلع الفارس للتعبير عما يدور في نفسه بصورة عملية باستعمال السيف والرمح، وكتم انفعالاته التي توحي بالضعف، كالبكاء والحزن، والتجلد قدر استطاعته؛ ليعكس صورة الرجل القوي في مواجهة المصاعب .

ونجد قصائد أخرى اختتمت بخواتيم لا تتضمن النصح والإرشاد والدعوة إلى التوبة وإرضاء الله فحسب، كقول عبد الله بن عوف بن الأحمر :

فيا امة تاهت وضلت سفاهة أنيبوا وأرضوا الواحد المتعاليا(٥٧)

وإنما نجد دعوة أخرى ألا وهي دعوة العيون لإرخاء جفونها للبكاء وإرسال الدموع الغزيرة، ومنه ما جاء عن السيدة سكينة بنت الحسين

(عليه السلام) إذ تقول:

يا عين فاحتفلي طول الحياة دماً ... لا تبك ولداً ولا أهلا ولا رفقه
لكن على ابن رسول الله فآنسكبي ... قيحاً ودمعاً وفي أثريهما العلقه[٥٨]

ولا تبتعد الأخت المفجوعة بفقد أخيها عن هذا المعنى، إذ تختتم قصيدتها باللوعة ولوم الزمان، وما آلت إليه أمور آل البيت عليهم السلام، وكان ذلك وصف لحال السيدة زينب عليها السلام بعد أن فقدت من تحتمي بحماه فتقول:

فلم يبق لي ركن ألوذ بظله ... ومن ذا يعاني الدهر من ذا يغالبه
وفرقنا هذا الزمان مشتتاً ... وأرخت علينا الفاجعات نكائبه[٥٩]

تفصح هذه الخاتمة عن عمق معاناة السيدة زينب (عليها السلام)، فقد ترك فقد الإمام (عليه السلام) آثاره الواضحة عليها، فهو بحق ركن قوي تلجأ إليه وتحتمي به من عاديات الزمان، فجاءت هذه الخاتمة انعكاساً مباشراً لانهيار ذلك (الركن) الذي تستند إليه عند الملمات، ونلمس هذا الأمر جليا في أشعار النساء، كما سيرد ذلك عند دراسة بناء المقطعات.

وقد يختتم الشاعر قصيدته بتقرير حقيقة راسخة في عقيدته، ومن ذلك خاتمة قصيدة أبي الأسود الدؤلي التي يرثي بها الإمام الحسين (عليه السلام) ويلوم فيها بني قشير الذي تربطه بهم صلة مصاهرة إلا إنهم يختلفون معه في العقيدة[٦٠]، وقد دعاهم إلى نصرة الإمام الحسين (عليه السلام) ؛لأنه يرى أن فضل هداية الناس ومنهم بنو قشير يعود إلى أهل البيت عليهم السلام، فيقول:

بهم اهتديتم فاكفروا إن شئتم ... وهم الخيار وهم بنو الأخيار[٦١]

فهو يقرر حقيقة ثابتة لديه وهي فضل الهداية، وبعد أن أشار إلى هذا الأمر

فهولا يعبأ بمن يضل بعد أن أكد صواب منهج آل البيت عليهم السلام فهم (الخيار) وهم (بنو الأخيار)، ويبدو أن هذا المعنى قد ترسخ لدى الشاعر وذلك عندما يؤكد انقطاعه لآل البيت عليهم السلام، وعدم اكتراثه بما تطلب منه(عاذلته)، أو (لائمته)، فهو لا يخشى ما ستؤول إليه نتائج هذا الحب والانقطاع لآل البيت عليهم السلام، بقوله:

سأجعل نفسي لهم جنة فلا تكثري بي من اللائمه
لتهلك إن هلكت بـرة وتخلص إن خلصت غانمه(٦٢)

يتضح لنا مما تقدم أن معظم خواتيم المراثي إذا لم نقل كلها جاءت معبرة عن مشاعر الشاعر وأحاسيسه على اختلاف أنواعها وقد وظفها الشاعر لتترجم لما يجول في خاطره ثم لينقلها إلى المتلقي رغبة في إشراكه وتفاعله مع الحدث .

ثانياً : بناء المقطوعة :

قبل أن نلج في دراسة المقطعات في مراثي الإمام الحسين (عليه السلام) لابد لنا من وقفة قصيرة عند أسباب ميل الشعراء إلى المقطعات، ثم ندرس أسبابها عند شعراء مراثي الإمام الحسين (عليه السلام) في العصر الأموي، وبخاصة عند الشعراء قريبي العهد من الواقعة.

إن ميل الشعراء إلى المقطعات يعود إلى أسباب منها ما يتعلق بالشاعر، ومنها ما يتعلق بالموضوع الذي يعالجه الشاعر، فمما يتعلق بالشاعر نجد أن الحالة النفسية للشاعر ومقدرته على النظم تؤثر تأثيراً كبيراً في ميله إلى هذا النمط من الأشعار ؛ فالشاعر الذي يسيطر عليه الانفعال الحزين يضطر إلى

الاختصار وتكثيف المعاني وصبها في أبيات قليلة، دون أن يقدم لقصائده أو مقطوعاته بمقدمات وإنما يطرح موضوعه بصورة مباشرة ومكثفة.

أما ما يتعلق بالموضوع فإنّ الأغراض الشعرية تفرض على الشاعر اتباع أنماط معينة في بناء قصائده، فلكل غرض أسلوب يلجأ إليه الشاعر يختلف عن غيره، ففي غرض الرثاء موضوع الدراسة نجد الشاعر-في الغالب- يعالج موضوعه بأبيات قصيرة، وقد أشار أبو هلال العسكري إلى أسباب ميل الشعراء إلى المقطعات معتمداً على آراء الشعراء أنفسهم في هذا الأمر(٦٣).

تختلف المقطعات عن القصائد الطوال، فهي تحمل فكرة مركزة ومعبرة عن تجربة شعورية صادقة، وهي لا تتسع للإفاضة في موضوعات أخرى سوى ترجمة العواطف والأحاسيس بكثافة وتركيز دون تكلف أو صناعة، وإنما تصدر عن انفعال شعوري سريع (٦٤).

بعد هذه التوطئة الموجزة عن المقطعات وأسباب كثرتها في الشعر العربي، وفي الرثاء بخاصة، وميل الشعراء إلى نظمها (٦٥)، لابد لنا من تناول مراثي الإمام الحسين (عليه السلام) التي وردت على هيأة مقطعات وبخاصة في المدة القريبة من الواقعة• إن الحالة النفسية المضطربة التي يعيشها الشاعر وما تنطوي عليه من أحزان وآلام وانفعال شديد لا تمهل الشاعر التقديم أو الخوض في موضوعات أخرى، وإنما تفرض عليه الولوج إلى غرضه بصورة مباشرة، ونلمس هذه الكثرة من المقطعات في أشعار النساء اللواتي فجعن بفقد الإمام الحسين (عليه السلام)، فالمرأة وما تتصف به من رهافة الحس وجيشان العاطفة لا تقوى على الإطالة في أشعارها، وإنما تجنح إلى المقطعات التي هيمنت على

أشعارها، فواقعة كربلاء ما تزال شاخصة أمام أبصارهن ((فالمصيبة في أولها والنفوس جزعة متحمسة، وشعر هذا الضرب فيه بكاء ولوعة وجزع، وفي مثل هذه الحال لا يستطيع الشاعر أن يرثي بقصائد طويلة بل مقطوعات قصار، منحصرة في الموضوع ذاته من غير استطراد أو خروج إلى أفكار أخرى إنما هي عواطف مكبوتة وحسرات حرى ينفثها الشاعر كيفما أوتي له))[٦٦].

وتتجلى في المقطعات ((قلة العناية بالصنعة (المحسنات، التصريع، المقدمة، وتعدد الموضوعات) وإيثار التعبير الأمين عن الفكرة))[٦٧]. ومن المقطعات التي عالجت استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) هذه المقطوعة للرباب بنت امرئ القيس زوج الإمام الحسين (عليه السلام) تقول فيها:

إن الذي كان نوراً يستضاء به ... في كربلاء قتيل غير مدفون
سبط النبي جزاك الله صالحة ... عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن ... يغني، ويأوي كل مسكين
والله لا ابتغي صهراً بصهركم ... حتى أغيب بين الرمس والطين[٦٨]

لقد بدأت هذه المقطوعة بالإشارة إلى مكانة الإمام الحسين (عليه السلام) في حياته فهو (نور يستضاء به)، ثم تعود لتصف حال الإمام (عليه السلام) وقد ترك صريعاً على ارض المعركة ، لقد استوعب هذا المطلع صورتين رسمتهما للفقيد ؛ لترتقي بهما في بناء المقطوعة، فجاء الدعاء للإمام الحسين (عليه السلام) جزاءً ووفاءً للخصال الكريمة التي أشارت إليها في مطلع القطعة، وما تلبث طويلاً حتى تعود إلى طبيعة المرأة الضعيفة، فهي تبكي فقده ؛لأنه حاميها

(قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به)، فالمرأة بطبيعتها التي فطرت عليها ضعيفة تحتاج إلى من يحميها ويدفع عنها المخاطر، ثم تذكر بره لليتامى والمساكين دون الإشارة إلى ذلك بالطرق المعهودة، وإنما بصيغة التساؤل (من لليتامى) و(من للمساكين)، ثم تختتم هذه المقطوعة مشفوعة باليمين بالبقاء وفية له، وهذا أقصى ما تستطيع الزوجة القيام به وهو البقاء وفية لذكرى زوجها الفقيد.

لقد جاءت هذه المقطوعة على قصرها لتضارع القصائد الطوال؛ لاستيعابها هذه المعاني المكثفة، فقد تضمنت مطلعاً استوعب ذكر خصال المرثي بصورة مجملة، وما آل إليه الحال بعد القتل، ثم الدعاء له، وبكاء الفقد وأثره على الراثي، ثم العودة لما بدأت به من ذكر الخصال التي يتمتع بها الإمام (عليه السلام)، ثم الختام بالوفاء لذكراه. لقد جسدت هذه المقطوعة الشعرية أحاسيس(الشاعرة) ومشاعرها التي تراكمت عبر سنوات (الصحبة)، وتفجرت بعد هذه التجربة الشعورية، فتمثلت هذه المثل والقيم العليا التي تختزنها ذاكرتها بهذه المقطوعة المكثفة المعاني، فكانت مثالاً للعاطفة الصادقة والمشاعر الوفية [٦٩].

وقد يجد الشاعر نفسه مضطراً لتقريع الأعداء لما اقترفوه بحق آل البيت (عليهم السلام)، وهو إقدامهم على قتل الإمام(عليه السلام) بفعل تأجج غضبه الشديد، وهذا ما نلمسه في مقطوعة للسيدة زينب بنت علي (عليها السلام)، وهي تخاطب(القتلة) بلهجة غاضبة متوعدة لهم بالعذاب فتقول :

قتلتم أخي صبراً فويل لأمكم ... ستجزون ناراً حرها يتوقد

سفكتم دماءً حرم الله سفكها وحرمها القرآن ثم محمد
ألا فابشروا بالنار إنّكُمُ غداً لفي سقر حقاً يقينا ً تخلدوا
واني لأبكي في حياتي على أخي على خير من بعد النبي سيولد
بدمع غزير مستهل مكفكف على الخد مني دائما ليس يجمد(٧٠)

لقد حاولت (الشاعرة) إثبات حقيقة راسخة لديها، وهي أن عمل هؤلاء الذين أقدموا على قتل الإمام الحسين (عليه السلام) محرم وسيجزيهم الله عليه(ناراً حرها يتوقد) طبقاً لما جاء في القرآن وسنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهي تبشرهم بالنار وهي على يقين راسخ بذلك. لقد استغرق إثبات هذا الأمر الأبيات الثلاثة الأولى من المقطوعة، وكأنها تحاول التأثير في أعدائها بـ (الضغط النفسي) عليهم وبيان عدم شرعية عملهم، وبعد ذلك تعود لتطلق لأحزانها العنان فتبكي أخاها بدموع غزيرة دائمة وفاءً لذكراه.

ومما يلاحظ في هذه المقطوعة وسابقتها، هو بروز ظاهرة تكاد تشكل مفصلاً مهماً ورئيساً في بناء المقطوعة، تلك هي ظاهرة الوفاء للفقيد، إذ إننا نلمس تمسك المرأة المفجوعة –سواء أكانت زوجة أو غير ذلك– بالبقاء وفية لذكرى الفقيد، فهو دائم الحضور في تفكيرها طوال حياتها وهذا ما اتضح في مقطوعة الرباب السابقة .

أما وفاء الأخت فيتمثل ببكائها عليه وحزنها الدائم، فهي لا تمتلك وسيلة أخرى للتعبير عن هذا الوفاء سوى إرسال الدموع الغزيرة الدائمة، فكان هذا الوفاء–على اختلاف طرقه–سمة مميزة في هذه المراثي .لقد جاءت جل المراثي ومنها المقطعات على هذا المنوال، فهي تبدأ بتقريع الجناة لما اقترفوه من

الذنوب الكبيرة وتبشرهم بنار جهنم جزاءً لهم، ثم إرسال الدموع السواجم على فقد الإمام (عليه السلام) [٧١] ومن ذلك قول السيدة زينب (عليها السلام) في المقطوعة السابقة:

واني لأبكي في حياتي على أخي ... على خير من بعد النبي سيولد[٧٢]

ومن ذلك قول أم لقمان بنت عقيل :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وانتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي[٧٣]

لقد بنيت هذه القطعة لتعبر عن فكرة محددة من محاججة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لهؤلاء القوم-على لسان الشاعر-واستيائه من أفعالهم لمخالفتهم له (صلى الله عليه وآله وسلم) وللقرآن الكريم الذي أوصى بحفظ قرابة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) انطلاقاً من قوله تعالى((قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا اَلْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى))[٧٤]. لقد وظفت(الشاعرة) هذه القطعة القصيرة لإقامة الحجة على هؤلاء القوم بمواجهتهم بأسئلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكأنه يحاورهم وجهاً لوجه على فعلتهم هذه ثم تنهي المقطوعة باللوم والتقريع لهؤلاء الجناة، فكانت النتيجة لهذه المساءلة هي تجريم الجناة [٧٥].

وقد يعمد الشاعر في بناء مقطوعته إلى إيصال فكرة محددة أو إحساس معين ألمَّ به، ومن ذلك هذه المقطوعة لعبيد الله بن الحر الجعفي التي وظفها للتعبير عن ألم وحسرة شديدين ألمّا به، فقد جاء بهذه المقطوعة لتترجم هذا الإحساس إذ يقول:

فيالك حسرة مادمت حياً ... تردد بين حلقي والتراقي
حسينا ً حين يطلب نصري ... على أهل الضلالة والنفاق
غداة يقول لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتزمع بانطلاق
فلو فلق التلهف قلب حي ... لهمَّ اليوم قلبي بانفلاق
فقد فاز الأُلى نصروا حسيناً ... وخاب الآخرون أولو النفاق[٧٦]

لقد غلب التحسر والندم على المقطوعة؛ لأنه لم يجب الإمام (عليه السلام) عندما دعاه للنصرة، فهو لم يشر إلى قتل الحسين (عليه السلام) بقدر إشارته إلى ندمه لتقاعسه عن نصرته، وكأنه يلوم نفسه على هذا الضعف والخور الذي اعتراه، فجاءت مقطوعته هذه تعبيرا ً صادقا ً عما يعتمل في صدره من مشاعر وأحاسيس تولدت عن هذا الندم . إن فوات الفرصة على الشاعر جعل ندمه وحسرته دائمة، وقد أشار إليها في مطلع مقطوعته مستذكراً لقاء الحسين (عليه السلام) وما دار بينهما من حوار ليزيد وأراد بهذا الاستذكار لوم النفس وتقريعها، ثم يعود إلى ذكر الندم و(التلهف) و (انفلاق القلب) لينهي المقطوعة بمثل ما ابتدأها، فجاء بناؤها ليفصح عن فكرة محددة بسطها الشاعر بإيجاز وصدق، فحالة الندم التي يعيشها الشاعر تلح عليه فلا يستطيع الابتعاد عن هذا المعنى .

وقد تسيطر حالة الحزن والتفجع على الشاعر فيظهر اثر ذلك في بناء المقطوعة، فيلجأ إلى توظيف (وسائل داعمة) ومؤججة للعواطف وهذا ما نلمسه في مقطوعة لعامر بن يزيد بن ثبيط البصري يدعو فيها زوجته لندب الإمام الحسين (عليه السلام) والبكاء عليه بإرسال الدموع الغزيرة، إذ يقول:

يا فرو قومي فاندبي خير البرية في القبور
وابكي الشهيد بعبرة من فيض دمع ذي درور
وارثي الحسين مع التفجع والتأوه والزفير
وابكي يزيد مجدلاً وابنيه في حر آلهجير
متزملين دماؤهم تجري على كبب النحور
يا لهف نفسي لم تَفُزْ معهم بجنات وحور[٧٧]

لقد ابتدأ الشاعر مقطوعته هذه بالدعوة إلى ندب الحسين (عليه السلام) وبكائه بدموع غزيرة، فالمرأة تعد (وسيلة) مساعدة في إثارة مشاعر الحزن والتفجع لما عهد بها من عواطف جياشة، فهي لا تستطيع كتم عاطفتها على خلاف الرجل الذي قد يتجلد أو يخفي أحزانه وآلامه، وانطلاقاً من هذه الحقيقة وجد الشاعر في زوجته ما يعينه على إظهار أحزانه، فهو يلح عليها وعلى مدى أربعة أبيات ثم يصف أباه وأخويه وهم مجدلين (في حر آلهجير) (متزملين) و(دماؤهم تجري)، وكأنه أراد أن يعين زوجته على رسم صورة في مخيلتها عن القتلى من أهل بيته ليعطيها دافعاً اكبر نحو البكاء والعويل واستدرار الدموع الغزيرة، ثم يختتم مقطوعته بالتمني، فهو يتمنى لو انه كان معهم ليفوز (بجنات وحور)، ولعله أراد بهذه الخاتمة صرف المتلقي عن تصور أن بكاءه على ذويه لأنه فقدهم أو انه يتمنى لهم السلامة، وإنما أراد البكاء وإظهار الحزن على الإمام (عليه السلام) بدليل تقديم بكائه (عليه السلام) على بكاء ذويه الذين سقطوا في واقعة الطف، ثم شفع ذلك بتمني أن يكون معهم في الجنان لأنهم شهداء وقد نصروا الحسين (عليه السلام).

وهناك مقطوعات قصيرة لا تتعدى البيتين خصصها الشاعر للندب الخالص، والندب هو ((النواح والبكاء على الميت بعبارات مشجية وألفاظ محزنة تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع))[٧٨]. ومن ذلك مقطوعة للرباب زوج الحسين (عليه السلام) تقول فيها:

واحسيناً فلا نسيت حسيناً أقصدته أسنة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعاً لاسقى الله جانبي كربلاء[٧٩]

لقد ملكت حالة الفقد على المرأة أحاسيسها ومشاعرها، فكانت هذه المقطوعة تعبيراً صادقاً عن زفراتها وآلامها، فهي حزينة مكسورة الجناح لا طاقة لها على تحمل هول المصيبة، فأطلقت كلماتها لتعبر عن ذلك الشعور الحزين بندب الحسين (عليه السلام) واصفةً لحآله وقد نالت منه (أسنة الأعداء) وهذا ما ترك أثره على تفكيرها، فانعكس على بناء المقطوعة ومنه الدعاء على كربلاء تلك الأرض التي لم تحفظ لها زوجها، فكان هذا الدعاء رد فعل طبيعي لهذا الانفعال ومثله قول أم لقمان بنت عقيل:

عيني ابكي بعبرة وعويل واندبي إن ندبت آل الرسول
ستة كلهم لصلب علي قد أصيبوا وخمسة لعقيل[٨٠]

لقد أفصحت الشاعرة عما تريده في هذه المقطوعة الموجزة بالدعوة المباشرة للعين بالبكاء والندب لآل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد أشارت إليهم (ستة لصلب علي) و(خمسة لعقيل)، وقد وظفت لذلك وسائل التفجع والبكاء بالإيعاز للعين بالبكاء (بعبرة) و(عويل) وندب .

وقد نجد مقطعات أخرى تعتمد التصريع في بنائها ومن ذلك هذه الأبيات لجارية عاشت في كنف الإمام الحسين (عليه السلام) إلا إنها فجعت بفقده فأنشأت تقول :

نعى سيدي ناع نعاه فأوجعا ... وأمرضني ناع نعاه فأفجعا
فعينيّ جودا بالدموع أواسكُبا ... وجودا بدمع بعد دمعكما معا
على من دهى عرش الجليل فزعزعا ... فأصبح هذا المجد والدين اجدعا
على ابن نبي الله وابن وصيه ... وإن كان عنا شاحط الدار اشسعا[٨١]

ويبدو أن مثل هذه المقطعات إنما جاءت لتلبي حالة الحزن والتفجع والنواح التي تكثر في مآتم النساء التي كانت–وما زالت–تقام في ذكرى هذه المناسبة؛ وذلك لأن بناء المقطوعة يوحي بذلك فهي تردد في هذه المجالس وبلحن معين لتؤدي هذه الوظيفة، على خلاف غيرها من المقطعات والقصائد التي لا تعتمد التصريع بسبب اضطراب الشاعر وابتعاده عن العناية بالناحية الفنية لشعره، استجابة لهذا الاضطراب العاطفي المتولد عن الفاجعة وتداعياتها.

وهناك مقطوعة قد تركت أثرها في نفس المتلقي فاكتسبت شهرة واسعة فهي تردد في المجالس وعلى مر العصور تلك هي مقطوعة بشير بن حذلم الذي أوكلت له مهمة نعي الحسين (عليه السلام)إلى أهل المدينة، فقد اقتصرت مهمته على الإبلاغ عن خبر مقتل الإمام (عليه السلام) فابتدأها بمخاطبة أهل المدينة بطريقة مؤثرة إذ يقول فيها:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فادمعي مدرار

الجسم منه بكربلاء مضرج والرأس منه على القناة يدار[٨٢]

لقد أتم الشاعر مهمته ـ إبلاغ خبر مقتل الإمام ـ بنجاح وإيجاز شديد ومكثف على الرغم مما تضمنه البيتان من معان، إذ بدأها بخطاب ونداء موجه إلى أهل يثرب للفت الانتباه ثم إخبار معزز بالحزن والدموع، ثم وصف موجز ودقيق لما جرى للإمام (عليه السلام) ولا يخلو هذا الوصف من نفس حزين• ومما يلاحظ في هذه المقطوعة أنها وظفت المفردة القرآنية في نسيجها أو بنائها الشعري، ولعل لثقافة الشاعر واتجاهاته الدينية الأثر الأكبر في بروز هذه الظاهرة فضلا عن الجو العام الذي ولدت فيه هذه المقطوعة وغيرها من القصائد، فقد استقى الشاعر هذا النداء من مضمون الآية الكريمة:﴿**وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَئذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً**﴾[٨٣].

وكأنه يحاول الرجوع بذاكرتهم إلى الوراء وما كان يفعل الذين حاولوا القعود في بيوتهم، وإيجاد السبل والذرائع ليأذن لهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعدم الخروج معه في غزواته ومعاركه مع الكفار آنذاك.

ثالثاً : الوحدة العضوية :

ويقصد بها أن تكون القصيدة ذات بنية حية تامة الخلق [٨٤]، وتتمثل بوحدة الموضوع الذي تدور حوله القصيدة، ووحدة المشاعر التي يثيرها هذا الموضوع وما يتطلب هذا الأمر من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً تتدرج فيه القصيدة حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها هذا الترتيب للصور والأفكار تؤدي فيها أجزاء

القصيدة وظيفتها بصورة متتابعة ومتسلسلة ومترابطة العلائق [٨٥].

لقد اختلف النقاد في إمكانية تحقق الوحدة العضوية في القصيدة العربية[٨٦]، إلاّ إننا نجد هذه الوحدة قد تحققت في قصيدة الرثاء ،فالوحدة فيها ((تقوم على أساس تنمية المشاعر لأقسام القصيدة تنمية عضوية بحيث ينشأ كل جزء من سابقه نشوءً طبيعيا ً مقنعاً، ويستدعي الجزء الذي يليه استدعاءً حتمياً، حتى تتكامل أجزاء القصيدة وتشملها عاطفة موحدة، و تتحقق هذه الوحدة في القصائد ذات الموضوع الواحد وهي القصائد القصيرة والمقطعات))[٨٧]. وتتجسد في هذه الوحدة ((هيمنة إحساس واحد أو لحظة شعورية واحدة أو رؤية نفسية ذات لون محدد في العمل كله))[٨٨]، ولعل السبب الذي اظهر هذه الوحدة في المراثي هو تحللها من التقليد الفني الذي سار عليه الشعراء في بناء قصائدهم في غير الرثاء [٨٩]، رغم سعيهم في هذه القصائد إلى أن تجيء ملتحمة غير متنافرة الأجزاء[٩٠].

إن دراسة البناء الفني للقصيدة تدعو إلى دراسة الوحدة العضوية فيها؛ لأنها تدخل في إطار البناء الفني للقصيدة[٩١]، ولأن ((دراسة الوحدة العضوية يتعلق بالبحث بدراسة علاقات الأجزاء التي هي الأقسام التي يتكون منها النص، بينما في حالة البناء الفني يتعلق الأمر بدراسة العلاقات بين العناصر المكونة للقصيدة فضلاً عن دراسة الأقسام المكونة لها))[٩٢].

لقد أشار النقاد إلى أهمية الوحدة العضوية على اختلاف تسمياتها [٩٣]، وشغلت حيزاً كبيراً في تفكير ودراسات القدماء[٩٤]. ومن استقراء مراثي الإمام الحسين (عليه السلام)–موضع البحث–نجد إن الوحدة العضوية قد تحققت بوحدة الموضوع الذي تعالجه، ووحدة المشاعر والأحاسيس التي تثيرها هذه

المراثي إذ تسيطر العاطفة الحزينة على المرثية وان شاب بعض هذه المراثي عواطف أخرى كالغضب والسخط والتهديد-كما سيتضح لنا فيما بعد- وغيرها من العواطف إلا إنها تصب في مصب واحد، فإذا تحققت الوحدة العضوية في قصيدة الرثاء فمن باب أولى أن نراها متحققة في المقطعات إذ لا تحتاج إلى التدليل على وجود هذه الوحدة فيها ؛ لأنها لا تستوعب إلا فكرة واحدة [٩٥]، فمنها ما كان رثاء فيه حسرة وندم وذلك ما نلمسه في مقطوعة عبيد الله بن الحر الجعفي :

فيالك حسرة مادمت حياً ... تردد بين حلقي والتراقي
حسيناً حين يطلب نصري ... على أهل الضلالة والنفاق
غداة يقول لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتزمع بانطلاق
فلو فلق التلهف قلب حي ... لهمَّ اليوم قلبي بانفلاق
فقد فاز الأُلى نصروا حسيناً ... وخاب الآخرون أولو النفاق[٩٦]

للأسباب التي مر ذكرها، فهي تدور حول هذا المستوى في الانفعال، أو

إليك أخا الصب الشجي صبابة ... تذيب الصخور الجامدات همومها
عجبت وأيام الزمان عجائب ... ويظهر بين المعجبات عظيمها
تبيت النشاوى من أمية نوماً ... وبالطف قتلى ما ينام حميمها
وتضحى كرام من ذؤابة هاشم ... يُحكّم فيها كيف شاء لئيمها
وتغدو جسوم ماتغذت سوى العلى ... غذاها على رغم المعالي سهومها
لقد قبلتها المكرمات فأصبحت ... يقبلها وقت آلهجير سمومها
وربات صون ما تبدت لعينها ... قبيل السبا إلا لوقت نجومها

تزاولها أيـــدي آلهـــوان كأنمـــا تقحـــم ما لا عفـــو فيـــه اثيمهـــا
وما ضيـــع الإسـلام إلا عصابـــة تأمـــر نوكـــاهـــا ودام نعيمهـــا
فصارت قناة الدين في كـــف ظالم إذا مـــال منهـــا جانب لا يقيمـــهـــا
وخاض بها طخياء لا يهتدي لهـــا سبيل ولا يرجى آلهدى من يعومهـــا
ويخبط عشـــوا لا يـــرد مرادهـــا ويركـــب عميـــا لا يرد عزومـــهـــا
يجشمها ما لا يجشمـــه الـــردى لأودى وعادت للنفوس جسـومهـــا
إلى حيث ألقاهـــا ببيـــداء مجهـــل تضـــل لأهل الحلـــم فيها حلومهـــا
رمتها لأهل ألطـف فيهـــا عصابـــة حداها إلـــى هدم المكـــارم لومهـــا
فشنت بها شعـواء فـي خير فتيـة تخلت لكســب المكرمات همومهـــا
على أن فيها مفخراً لـو سمت بـــه إلى الشمس لم تحجب سناها غيومها
فجرت من سحب الإباء بوارقـــاً يشيم الفنا قبل الفنـــا من يشـيمهـــا
فما صـعرت خـــداً لإحراز عـــزة إذا كان فيها ســاعـــة مـــا يضيمهـــا
أولئـــــك آل الله آل محمـــــد كرام تحدث ما حداهـــا كريمـــهـــا
أكـــارم أولين المكـــارم رفعـــة محمد العلى لـــولا علاهـــم ذميمهـــا
ضياغـــم أعطين الضـــياغم جرأة فما كان إلا مـــن عطاهـــم قدومهـــا
يخوضـــون تيـــار المنايـــا ظواميـــا كما خاض في عذب الموارد هيمهـــا
يقوم بهم للمجد ابيـــض مـــاجد اخو عزمات أقعـــدت من يرومهـــا
حمى بعـــد ما أدى الحفاظ حمايـــة وأحمى الحمـــاة الحافظين زعيمهـــا
إلى أن قضى من بعد ما إن قضى على ظمـــاء يسلي بالســـهام فطيمهـــا
أصابته شنعاء فلـــو حـــل وقعهـــا على الأرض دكت قبل ذاك تخومهـــا
فأيتامُـــهُ لم تلـــق بالطـف كافـــلاً ولم يـــر مـــن يحنـــو عليـــه فطيمها

وصاح غراب البين فيهم فأصبحت ... من الشجو لا تأوي العمارة بومها
فقصر فما طول الكلام ببالغ ... مداها رمي بالعي عنها كليمها
فما حملت ام الرزايا بمثلها ... وان ولدت في الدهر فهي عقيمها
أتت أولاً فيها بأول معضل ... فماذا الذي شمت على من يسومها
قضى فيه أمراً لو قضى دون ما قضى ... عفت من مغاني الظالمين رسومها
فاقسم لاتنفك نفسي جزوعة ... وعيني سفوحاً لا يمل سجومها
حياتي أو تلقى أمية وقعة ... يذل لها حتى الممات قرومها
لقد كان في أم الكتاب وفي آلهدى ... وفي الوحي لم ينسخ لقوم علومها
فرائض في القرآن قد تعلمونها ... يلوح لذي اللب البصير أرومها
بها أنّ من قبل المسيح بن مريم ... ومن بعده لما أمر بريمها
فإما لكل غير آل احمد ... فيقضي بها حكامها وزعيمها
وإما لميراث الرسول وأهله ... فكل يراهم ذمها وجسيمها
فكيف وضلوا بعد خمسين حجة ... يلام على هلك الشراة أديمها

ترد تعبيراً عن الاستياء كقول أم لقمان بنت عقيل :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وانتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم اسارى ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني يسوء في ذوي رحمي (٩٧)

أو دعوة للبكاء والندب والتفجع كقول عامر بن يزيد البصري:

يا فرو قومي فاندبي ... خير البرية في القبور
وابكي الشهيد بعبرة ... من فيض دمع ذي درور

وارثي الحسين مع التفجع والتأوه والزفير
وابكي يزيد مجدلاً وابنيه في حر الهجير
متزملين دماؤهم تجري على كبب النحور
يا لهف نفسي لم تَفُزْ معهم بجنات وحور[٩٨]

ومنها ما يأتي يفيض بالوعيد والتقريع، ومن ذلك قول الشاعر :

أيها القاتلون جهلا حسيناً أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم من نبي وملك وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود وموسى وحامل الإنجيل[٩٩]

الخ من الانعكاسات التي تظهر على أشعار الشعراء، فهي مركزة ذات وحدة واحدة.

أما في القصائد القصيرة أو المتوسطة – وهذا ما نراه غالباً على مراثي الإمام الحسين (عليه السلام) بعد المقطعات – فالوحدة العضوية تبدو واضحة لتآزر الأبيات في إظهار حالة الحزن التي تلم بالشاعر إذ تنمو القصيدة بتتابع هذه الأبيات حتى تكتمل الفكرة التي تعالجها هذه القصيدة عند الانتهاء من الخاتمة .

يتضح في هذه القصيدة – التي حرصنا على إثباتها كاملة – الوحدة العضوية فقد بنى الشاعر قصيدته بناءً محكماً وذلك بتتابع المعاني وترابطها، فهو ينتقل من معنى إلى معنى برشاقة ومهارة، فبدأها بـ (البيتين ١ – ٢) بإظهار حزنه وصبابته التي تذيب الصخور متعجباً لحوادث الزمان، ثم ينتقل في (البيتين ٣–٤) إلى عقد موازنة ومقارنة بين بني أمية ومثالبهم، وبين وقتلى

بني هاشم ومناقبهم ،فهو يصف (النشاوى) بنصرهم في هذه المعركة غير المتكافئة ،ويصف بني هاشم الذين تركوا في ميدان المعركة صرعى واصفا ً (الابيات٥-٨) لحآلهم وحال نسائهم وما تعرضن له من سبي وأذى ثم ينتقل (الأبيات ٩- ١٥) إلى بني أمية واصفا ً انحرافهم عن الدين وظلمهم للرعية فقد (صارت قناة الدين في كف ظالم) ٠

لقد عمد الشاعر إلى عقد هذه الموازنة بين الفريقين، (الأبيات ١٦- ٢٥) ففريق هم كرام ونساؤهم (ربات صون) وهم من (آل الله) و(آل محمد) وفيهم سخاء وكرم، فهم (أكارم)، واتصفوا بالشجاعة فهم (ضياغم) لا يهابون الموت لأنهم (يخوضون تيار المنايا ضواميا)، وفريق يسند لهم صفات الغدر والانحراف، وفساد الدين ؛ لأنهم عمدوا إلى(هدم المكارم)٠٠٠ وغيرها من الصفات التي تحط من شأنهم ؛لأنهم أقدموا على قتل الإمام الحسين(عليه السلام) وأصحابه، فهذه الموازنة أسهمت في إبراز الفكرة التي يرمي الشاعر إلى إظهارها، وهي فداحة الخسارة وشدة وقع المصيبة، لقد أسهب الشاعر في هذا الجزء من القصيدة (جزء الموازنة أو المقارنة)؛ ليجعل منه أساسا ً للجزء الذي يليه، ثم ينتقل الشاعر إلى وصف نهاية أمر الحسين(عليه السلام) وما جرى لآل بيته بعد مقتله (الأبيات ٢٦-٣٣).

وبعد ذلك ينتقل إلى وصف مشاعره وما تركته واقعة الطف من آلام ترجمها الشاعر إلى دموع وجزع، وتمني هلاك آل أمية(الأبيات ٣٤-٣٥) وهو وصف عمق الحزن الذي ألّم به وهو يصور ما جرى لآل البيت عليهم السلام في واقعة ألطف، ولعل إسهاب الشاعر في الحديث عن مناقب الفقيد وأهل بيته

وتأخير الحديث عن مشاعره وأحاسيسه تجاه الفقيد نابع من محاولة الشاعر للتأثير في المتلقي ولتحقيق المشاركة الشعورية، فقد حافظ على رباطة جأشه، ولم يظهر حزنه وألمه حتى قدم له وسوّغ له بالحجج التي ساقها، ولا يخفى على قارئ القصيدة مدى الترابط والانسجام بين أجزائها، فكل جزء من أجزائها يضيء جانباً من جوانب مشاعر الشاعر تجاه هذا الحدث .

و تتجلى الوحدة العضوية في قصيدة عبيد الله بن الحر الجعفي التي يقول فيها[١٠١] :

١- يقول أمير غادر حق غادر ... ألا كنت قاتلت الشهيد بن فاطمه

٢- ونفسي على خذلانه واعتزآله ... وبيعة هذا الناكث العهد لائمه

٣- فيا ندمي إلا أكون نصرته ... ألا كل نفس لا تسدد نادمه

٤- واني لأني لم أكن من حماته ... لذو حسرة ما إن تفارق لازمه

٥- سقى الله أرواح الذين تآزروا ... على نصره سقيا من الغيث دائمه

٦- وقفت على أجداثهم ومجآلهم ... فكاد الحشا ينفض والعين ساجمه

٧- لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى ... سراعاً إلى آلهيجا حماة خضارمه

٨- تآسوا على نصر ابن بنت نبيهم ... بأسيافهم آساد غيل ضراغمه

٩- فإنْ يقتلوا في كلّ نفس تقية ... على الأرض قد أضحت لذلك واجمه

١٠- وما إن رأى الراؤون أفضل منهم ... لدى الموت سادات وزهراً قماقمه

١١- أتقتلهم ظلماً وترجو ودادنا ... فدع خطة ليست لنا بملائمه

١٢- لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم ... فكم ناقم منا عليكم وناقمه

١٣- أهم مراراً أن أسير بجحفل ... إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه

١٤- فكفوا وإلا ذدتكم في كتائب ... اشد عليكم من زحوف الديالمه

إذ تنمو القصيدة بتضافر الأحاسيس والمشاعر لدى الشاعر حتى تصل ذروتها عند اكتمال القصيدة، فهو يبدأ بمطلع تهكمي ساخط (البيت الأول)- كما اشرنا إلى ذلك من قبل-ثم يتبعه بإحساسه بالندم والحسرة (الأبيات ٢-٤)؛ لشعوره بالتقصير عند رفضه الاستجابة لطلب الحسين(عليه السلام)، فقد سيطر هذا الشعور على تفكير الشاعر فتحول إلى مصدر ضغط لم يستطع التخلص منه بل ساقه إلى الخروج على السلطة أملاً في الخلاص من تأنيب الضمير وكان من ثمرات هذا الندم الدعاء للذين آزروا الحسين(عليه السلام) ونصروه (الأبيات ٥-١١) واصفاً شجاعتهم وإقدامهم في الذود عن الإمام(عليه السلام)، وكأنه يريد تعنيف نفسه ولومها لأنها لم تكن من هؤلاء المناصرين، وتتصاعد مشاعر الشاعر الساخطة عند تقريع ابن زياد ولومه على قتل الإمام الحسين (عليه السلام) بغضب شديد ثم يختتم القصيدة بالتهديد (الأبيات ١٢-١٤) وهي ذروة الانفعال لدى الشاعر، فالقصيدة تمثل انعكاساً لضمير الشاعر ؛ لأنها تعبر عن ((تجربة ذاتية نفسية، تربطها وحدة شعورية فكرية تجعل منها بنية عضوية متماسكة))[١٠٢] .

أما في المقطعات فالوحدة العضوية تبدو واضحة ولا تحتاج لدليل لإثباتها؛ لأنها لا تستوعب إلا وحدة واحدة من المشاعر [١٠٣]، فتأتي مركزة ومكثفة لتعبر عن انفعال آني واستجابة سريعة للحدث.

الهوامش

١. ينظر : مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي / ٧٦ وما بعدها .
٢. ينظر : بناء القصيدة العربية/ ٢٧٨ .
٣. ينظر : الشعر والشعراء ١/ ٢٠ .
٤. العمدة ١/ ٢٣١ .
٥. م ن ٢/ ١٥٢ .
٦. تمثل هذا التحول بانشغال الشاعر عن ذكر الديار والبكاء فيها، وانصرافه عن محبة النساء وشغفه بهن إلى حب ملأ عليه حياته وهو حب آل البيت (ينظر : مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي / ٢٠ وما بعدها).
٧. ينظر : التطور والتجديد في الشعر الأموي / ٢٨٢ .
٨. آلهاشميات/ ١١٨ .
٩. ينظر : في الشعر الإسلامي والأموي / ٢٨٩ .
١٠. آلهاشميات/ ١١٨ .
١١. العمدة ١/ ٢٣١ .
١٢. اثر الإسلام في بناء القصيدة العربية حتى نهاية العصر الاموي / ٢٢ .
١٣. ينظر : رثاء الابناء / ١٤٧ .
١٤. ينظر : حياة الشعر في الكوفة / ٣٨١ .
١٥. ينظر : الشعر والشعراء ١/ ٢٠ وما بعدها .
١٦. ينظر : عيار الشعر / ١٢٢ وما بعدها، و كتاب الصناعتين / ٤٥١، والمثل السائر ٣/ ٩٨، و العمدة ١/ ٢١٧ .
١٧. الوساطة بين المتنبي وخصومه/ ٤٨ .
١٨. حلية المحاضرة١/ ٢٠٦ .
١٩. ينظر : المطلع التقليدي في القصيدة العربية / ٤٦ .
٢٠. ينظر : بناء القصيدة العربية / ٣٨٣ .
٢١. العمدة ١/ ٢١٨ .
٢٢. م ن ١/ ٢١٨ .
٢٣. ينظر : الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي / ١٧ .

٢٤. ينظر : أسس النقد الأدبي / ٠٢٩٧

٢٥. عيار الشعر / ١٢٢ .

٢٦. المثل السائر ٣ / ٩٧ .

٢٧. ينظر : المطلع التقليدي في القصيدة العربية / ٨٦ وما بعدها .

٢٨. الكامل في التاريخ ٤ / ٧٨ ومابعدها.

٢٩. مجموع شعره ١ / ١١٧ .

٣٠. م ن ١ / ١١٧ .

٣١. ينظر تفصيل خروج عبيد الله بن الحر الجعفي على السلطة الاموية في الكامل في التاريخ ٤ / ٧٨ وما بعدها .

٣٢. ديوان أبي دهبل / ٨٦ .

٣٣. ديوان ابي دهبل / ٨٦ .

٣٤. م ن / ٥٩ .

٣٥. نسب هذا البيت لسليمان بن قته (في مروج الذهب ٣/ ٧٤)، ونسب إلى ابن أبي رمح الخزاعي (مقالات الإسلاميين ١/ ١٤٢).

٣٦. الشعراء وإنشاد الشعر / ١٣٧ .

٣٧. مقتل الحسين ٢/ ١٥١ .

٣٨. الدر المنثور في طبقات ربات الخدور / ٣٦٢ .

٣٩. نور العين في مشهد الحسين / ٥٤ .

٤٠. ديوان أبي الأسود الدؤلي / ١٢٤ .

٤١. م ن / ١٢٤ .

٤٢. أمالي الزجاجي / ١٦٨ .

٤٣. ينظر : الرثاء في العصر الجاهلي وصدر الإسلام / ١٣٠ وما بعدها .

٤٤. الكنى والألقاب ١/ ٢٣٢ .

٤٥. ديوان أبي الأسود الدؤلي / ١٢٤ .

٦٤. (٢) المنتخب في المراثي والخطب / ٣٢٩ .

٤٧. م ن / ٣٢٩ .

٤٨. م ن / ٣٥٧ .

٤٩. ينظر : الشعراء وإنشاد الشعر / ١٣٤ .

٥٠. العمدة ١/ ٢١٧ .

٥١. منهاج البلغاء / ٣٠٦ .

٥٢. العمدة ١/ ٢١٧ .

٥٣. منهاج البلغاء / ٢٨٥ .

٥٤. م ن / ٢٨٥ .

٥٥. شعراء أمويون (مجموع شعره) ١/ ١١٧ .

٥٦. معجم الشعراء / ١٢٦ .

٥٧. مروج الذهب ٢/ ٩٥ .

٥٨. أمالي الزجاجي / ١٦٩ .

٥٩. نور العين في مشهد الحسين / ٥٤ .

٦٠. ينظر : الأغاني ١٢/ ٢٧١ وما بعدها، وينظر نور القبس المختصر من المقتبس / ٧وما بعدها .

٦١. ديوان أبي الأسود الدؤلي/ ١٢٤ .

٦٢. م ن / ١٢٤ .

٦٣. وقيل للفرزدق: ما صيرك إلى القصائد القصار بعد الطوال، فقال : لأني رأيتها في الصدور أوقع، وفي المحافل أجول، وقالت بنت الحطيئة لأبيها : ما بال قصارك أكثر من طوالك، فقال : لأنها في الآذان أولج، وبالأفواه اعلق، وقال أبو سفيان لابن الزبعرى قصرت في شعرك، قال :حسبك من الشعر غرة لائحة، وسمة واضحة، وقيل للنابغة الذبياني : ألا تطيل القصائد كما أطال صاحبك ابن حجر، فقال: من انتحل انتقر، وقيل لبعض المحدثين : مالك لا تزيد على أربعة واثنين، فقال: هي في القلوب أوقع، والى الحفظ أسرع، وبالألسن اعلق، وللمعاني اجمع، وصاحبها ابلغ وأوجز ٠ (ينظر كتاب الصناعتين / ١٩٢ وما بعدها).

٦٤. ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه / ١٢٥، ينظر : شعر الرثاء في العصر الجاهلي / ٢٢ .

٦٥. للمزيد من التفصيل عن ظاهرة المقطعات في الشعر العربي ينظر : أبحاث في الشعر العربي / ٧ وما بعدها .

٦٦. الكامل في التاريخ ٤/ ٢٥ .

٦٧. لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية / ٤٧ .

٦٨. الأغاني ١٦/ ١٤٩ .

٦٩. ينظر : أدب الشيعة / ١٤ .

٧٠. مثير الأحزان / ٦٩ .

٧١. الطبري ٥/ ٤٦٦ .

٧٢. مثير الأحزان / ٦٩ .

٧٣. الطبري ٤/ ٣٥٧، ووردت منسوبة لأبي الأسود الدؤلي (الديوان / ١٦٩)، وهو المرجح إلا أن شهرتها جاءت من خلال ترديد أم لقمان لها .

٧٤. الشورى / ٢٣ .

٧٥. ينظر : شعر الفقهاء في العصر الأموي / ١٨٤ .

٧٦. شعراء أمويون (مجموع شعره) ١/ ١٠٩ .

٧٧. إبصار العين في أنصار الحسين / ٢٠٤ .

٧٨. الرثاء / ١٢ .

٧٩. تذكرة الخواص / ١٤٧ .

٨٠. مقتل الحسين ٢/ ١٥٢ .

٨١. اللهوف في قتلى الطفوف / ٧٥ .

٨٢. مقتل الحسين ٢/ ٢٣٩ .

٨٣. الأحزاب / ١٣ .

٨٤. ينظر : في النقد الأدبي / ١٥٣ .

٨٥. ينظر : النقد الأدبي الحديث / ٣٧٣ .

٨٦. ينظر : شعر الرثاء في العصر الجاهلي / ٢١٢ .

٨٧. الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه / ١٤٨ .

٨٨. شعر الرثاء في العصر الجاهلي / ٢١٤ .

٨٩. ينظر : رثاء الأبناء / ٨٧ .

٩٠. ينظر : الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي / ١٥٦ .

٩١. ينظر : رثاء الأبناء / ١٤ .

٩٢. م ن / ١٤ .

٩٣. ينظر : الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ٢/ ٣٥، ينظر : وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي / ٩٢ .

٩٤. ينظر : البيان والتبيين ١/ ٩٧، ينظر : الشعر والشعراء ١/ ٧٤ وما بعدها، ينظر : عيار الشعر / ٦، ينظر : منهاج البلغاء / ٢٨٧ .

٩٥. ينظر : رثاء الأبناء / ٨٩ .

٩٦. ينظر : شعراء أمويون (مجموع شعره) ١/ ١٠٩ .

٩٧. ديوان أبي الأسود الدؤلي / ١٢٠ .

٩٨. إبصار العين في أنصار الحسين / ٢٠٤ .

٩٩. الطبري ٥/ ٤٦٧ .

١٠٠. ديوان أبي دهبل الجمحي/ ٨٦ وما بعدها .

١٠١. شعراء أمويون (مجموع شعره) ١/ ١١٧ .

١٠٢. في النقد الأدبي / ١٥٦ .

١٠٣. ينظر : رثاء الأبناء / ٨٩ ،وينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه / ١٤٨ .

المصادر والمراجع:

١. أبحاث في الشعر العربي، د٠ يونس احمد السامرائي، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل (د ت) .

٢. إبصار العين في أنصار الحسين، تأليف الشيخ محمد بن الشيخ طاهر السماوي، تصحيح وتحقيق علي جهاد الحساني، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م.

٣. الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي، سعيد عدنان، دار الرائد العربي، بيروت لبنان (د ت) .

٤. اثر الإسلام في بناء القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي، احمد شاكر غضيب، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٩ م.

٥. أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني آلهجري، عبد الحسيب طه عبده، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، مصر، ١٩٥٦ م.

٦. الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٩٣م .

٧. أسس النقد الأدبي عند العرب، د احمد احمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٤م .

٨. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ت ٣٥٦هـ، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ عبد أ ٠ علي مهنا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، لبنان، ١٩٨٦م .

٩. أمالي الزجاجي، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، ت

٣٤٠ هـ، تحقيق عبد السلام محمد هارون / المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٨٢ هـ .

١٠. بناء القصيدة العربية في النقد القديم في ضوء النقد الحديث، د ٠ يوسف حسين بكار، دار الثقافة للطباعة والنشر ،القاهرة، ١٩٧٩ م.

١١. تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت ٣١٠ هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.

١٢. تذكرة الخواص، للعلامة سبط بن الجوزي ت ٦٥٤ هـ، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٦٤م .

١٣. التطور و التجديد في الشعر الأموي، د ٠ شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الخامسة، مصر ١٩٧٣ م.

١٤. حلية المحاضرة في صناعة الشعر، لمحمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، ت ٣٨٨ هـ، تحقيق د٠ جعفر الكناني، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧١م .

١٥. حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني آلهجري، د ٠ يوسف خليف، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، ١٩٦٨م .

١٦. الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، تأليف زينب بنت علي بن حسين العاملي، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٣١٢ هـ .

١٧. ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعه أبو سعيد الحسن السكري، تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٤م .

١٨. ديوان أبي دهبل الجمحي، رواية أبي عمرو الشيباني، تحقيق عبد العظيم عبد المحسن، مطبعة القضاء، الطبعة الأولى، النجف الاشرف، ١٩٧٢م.
١٩. رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، د٠ مخيمر صالح موسى، مكتبة المنار، الطبعة الأولى، عمان، ١٩٨١م .
٢٠. الرثاء في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، بشرى محمد علي الخطيب، مطبعة الإدارة المحلية، بغداد، ١٩٧٧م .
٢١. الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د ٠ يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م .
٢٢. الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، د٠ محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة (د ت) .
٢٣. شعر الرثاء في العصر الجاهلي، د٠ مصطفى عبد الشافي، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥م .
٢٤. شعر الفقهاء في العصر الأموي دراسة موضوعية فنية، سهام كاظم جابر، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٠ .
٢٥. الشعر والشعراء، تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ت ٢٧٦هـ، مطبوعات دار الثقافة ،الطبعة الثانية، بيروت١٩٦٩ م .
٢٦. شعراء أمويون، دراسة وتحقيق د نوري حمودي القيسي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٦م .
٢٧. الشعراء وإنشاد الشعر، علي الجندي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩ م.

٢٨. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق الازدي القيرواني، ت ٤٥٦ هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣٤م .
٢٩. عيار الشعر، لمحمد بن احمد بن طباطبا العلوي، ت ٣٢٢ هـ، تحقيق وتعليق د٠ طه الحاجري و د٠ محمد زغلول سلام، شركة فن للطباعة، مصر، ١٩٥٦م .
٣٠. في الشعر الإسلامي والأموي، د٠ عبد القادر القط، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩ م.
٣١. في النقد الأدبي، د٠ شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثانية، مصر، ١٩٦٦ م.
٣٢. الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين، ت ٦٣٠ هـ، دار الفكر، بيروت، د ت.
٣٣. كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ت ٣٩٥ هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦م .
٣٤. الكنى والألقاب، عباس محمد رضا القمي، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف ١٩٥٦م .
٣٥. لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية، د٠ عدنان حسين العوادي، دار الشؤون الثقافية والنشر،

بغداد، ١٩٨٥ م .
٣٦. اللهوف في قتلى الطفوف، للسيد علي بن موسى بن محمد بن طاووس الحسيني، ت ٦٦٤ هـ، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف .
٣٧. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تأليف ضياء الدين بن الأثير، قدم له وعلق عليه د ٠ احمد الحوفي و د٠ بدوي طبانه دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٤٧ م.
٣٨. مثير الأحزان، نجم الدين محمد بن جعفر بن جعفر أبي البقاء هبة الله بن نما الحلي ت ٦٤٥ هـ المطبعة الحيدرية، النجف ،١٩٥٠ م .
٣٩. مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمؤرخ أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ت ٣٤٦ هـ تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٩ م.
٤٠. المطلع التقليدي في القصيدة العربية دراسة ونقد وتحليل، عدنان عبد النبي البلداوي، مطبعة الشعب، بغداد (د ت) .
٤١. معجم الشعراء ،لأبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، ت ٣٨٤هـ تحقيق عبد الستار احمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠ م.
٤٢. مقتل الحسين، لأبي المؤيد الموفق بن احمد المكي الخوارزمي، ت ٥٦٨ هـ، ملاحظة وتعليق العلامة محمد السماوي، مطبعة الزهراء، النجف الاشرف، ١٩٤٨م .
٤٣. مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، د٠ حسين عطوان دار

المعارف، مصر، ١٩٧٤م .
٤٤. المنتخب في المراثي والخطب، المعروف بالفخري ،تأليف فخر الدين الطريحي، المطبعة الحيدرية، الطبعة الثالثة، النجف الاشرف ١٩٤٩م .
٤٥. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صنعه أبو الحسن حازم بن محمد بن حين القرطاجني، ت ٦٨٤ هـ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦م .
٤٦. النقد الأدبي الحديث، د٠ محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (د ت) .
٤٧. نور العين في مشهد الحسين، لأبي إسحاق الاسفرايني، ت ق العاشر آلهجري، مطبعة المنار تونس(د ت) .
٤٨. الهاشميات، الكميت بن زيد الاسدي، اعتنى بتصحيحها وضبطها بالشكل محمد شاكر الخياط النابلسي الأزهري عن الشيخ محمد محمود الشنقيطي، مطبعة الموسوعات، مصر ،١٣٥٠هـ .
٤٩. الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، ت ٣٦٦ هـ، تحقيق وشرح محمد أبي الفضل إبراهيم و علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثالثة، ١٩٥١م .